المحاضرة الخامسة

نظرية الشك في الشعر الجاهلي:

كانت ملاحظات العلماء الأوائل الذين دونوا الشعر في القرن الثاني الهجري أول الأركان التي قامت عليها نظرية الشك ،فقد أشار أول العلماء إلى وجود رواة وضّاعين يصنعون الشعر وينسبونه إلى شعراء جاهليين ،ومن أولئك الرواة حماد الراوية وخلف الأحمر ومحمد بن إسحاق .

وقد حفلت كتب القدماء كالنقائض لأبي عبيدة وطبقات فحول الشعراء لابن سلام والشعر والشعراء لابن قتيبة بطائفة من الأمثلة التي ذكر فيها مؤلفوها صراحة شكهم ببعض النصوص ونبهوا على زيفها وردوها إلى أصولها الصحيحة في نسبتها إن كانت منتحلة أو منحولة وأبطلوها إن كانت مصنوعة .

وقد عزا ابن سلام قضية الانتحال إلى سببين :

أولهما: العصبية القبلية حيث كانت القبائل تتزيد في شعرها لتتزيد في مناقبها.

وثانيهما: رواة الشعر وجهلهم، وبراعتهم في التقليد والتزييف وضرب مثلاً بابن إسحاق في جهل الشعر وحماد في براعة التزييف ،فهو عنده أول المزيفين .

وفي القرن التاسع عشر الميلادي تناول المستشرقون الأدب العربي ومنه الشعر الجاهلي فاستند بعضهم إلى ملاحظات العلماء العرب لنفي صحة الكثير من الشعر الجاهلي ،بل إن بعضهم أنكر عامة الشعر الجاهلي ،وقد بذل بعض المستشرقين المعتدلين جهوداً كبيرة في الرد على هؤلاء المتزمتين المنكرين للشعر الجاهلي ،ثم تبنى الدكتور طه حسين آراء بعض المستشرقين الذين شككوا في صحة الشعر الجاهلي في محاضرات ألقاها في جامعة القاهرة وجمعها في كتابه (في الشعر الجاهلي) منكراً الشعر الجاهلي بوجه عام وقد أثار بذلك ضجة كبيرة ووجهت له الاتهامات، فأعاد إصدار كتابه مرة ثانية تحت عنوان (في الأدب الجاهلي) بعد أن

تراجع عن بعض آرائه منكراً فيه بعض الشعر الجاهلي وموثقاً بعضه الآخر بعد أن ثبتت نسبته إلى ذلك العصر .

ثم تبين بعد ذلك أن نظرية طه حسين في كتابه (في الشعر الجاهلي) الصادر سنة ١٩٢٦ لا يختلف في أدلته عن مقالة كتبها المستشرق الإنكليزي مارجليوث بعنوان (أصول الشعر العربي) ونشرها عام ١٩٢٥ .

أدلة مارجليوث في الشك في الشعر الجاهلي

أولاً : الأدلة الداخلية :

١-إنعدام عنصر الوثنية في الشعر .

لقد أشار إلى أن العرب في عصر ما قبل الإسلام كانوا وثنيين غير أن شعرهم الواصل جاء يحمل معاني التوحيد الديني لذلك يعتبر أن الشعر لا يعبر عن صورة ذلك العصر وأنه لا بد أن المعاني الإسلامية أُخذت من القرآن الكريم .

الرد : ليس صحيحاً ما ذهب إليه من انعدام عنصر الوثنية في الشعر الجاهلي وذلك لأننا نجد الكثير من مظاهر الوثنية في شعر هذا العصر من خلال دوواين بعض الشعراء والمفضليات إلى جانب كتب أخرى تناولت أصنام العرب وديانتهم في الجاهلية مثل كتاب الأصنام لابن الكلبي .

٢-انعدام تعدد اللهجات في الشعر .

يرى أن العرب قبل الإسلام كانوا موزعين على قبائل ولكل قبيلة لغتها الخاصة بها، وأنه كذبٌ أن الشعر الواصل إلينا جاء بلغة موحدة هي لغة قريش ،حيث حسب زعمه أن هذه اللغة لم تكن موجودة إلا بعد نزول القرآن .

الرد : أنه من الخطأ الاعتقاد بأن لهجات القبائل العربية التي سبقت الإسلام كانت مختلفة اختلافاً كثيراً ، والاختلاف فيها بسيط لا يتعدى بعض الظواهر الإعرابية

والصوتية وأن توحد اللغة يعود لقبيلة قريش قبل ظهور الإسلام حيث أسهمت العوامل التجارية والسياسية والدينية في تحقيق هذا التوحيد حيث كانت قريش مركز الجزيرة إضافة إلى سلطتها العالية ونفوذها ووجود الأسواق الشعرية كسوق عكاظ .

٣-موضوعاته واحدة وليست متعددة .

فأراد أن يستنتج أن القصائد الجاهلية قد جاءت متفقة في التطرق لموضوعات واحدة بعينها تتكرر في كل قصيدة أمرٌ يدل على أنها نظمت بعد نزول القرآن لا قبله .

الرد : وهذا مخالف للواقع إذ إن أغراض الشعر الجاهلي وموضوعاته متعددة ومتنوعة ،نعم إن الأغراض والموضوعات الرئيسة أغلب الشعراء قد طرقوها ونظموا فيها إلا أنها تختلف من حيث تناولها من شاعر إلى آخر فهي تختلف بحسب تناول كل شاعر لها .

ثانياً : الأدلة الخارجية .

١-التشكيك بهذه الرواية .

لقد أنكر وجود رواة ثقاة قادرين على حفظ كل هذا التراث الشعري، مشيراً إلى أن العرب لم تكتب أشعارها ولهذا ينكر صحة وصول الشعر عن هذا الطريق .

الرد : إن ثمة أخبار كثيرة تشير إلى صحة الرواية وصدقها إلى جانب قيام العرب بتدوين تراثهم وإذا كان مارجليوث بسبب ما ذكره يقصد وجود رواة موسومين بالكذب وهذا لا يمنع وجود رواة ثقاة حرصوا على تحري الدقة والأمانة مثل أبو عمرو بن العلاء ومن هنا فإن التشكيك في هذه المسألة لا أساس له من الصحة وهو يقصد النيل من التراث العربي .

٢-عدم وجود ما يتصل بأولية الشعر العربي .

وفرض مارجليوث نظرية علمية بنشأة الشعر وأوليته حيث قال :(إن بداية الشعر لا بد أن تكون بسيطة ثم تنمو وتتطور بالتدريج عبر قرون طويلة ليصل الشعر إلى مرحلة النضج والكمال) واستخدم هذه النظرية بخبث ولؤم ليصل من خلالها إلى إنكار صحة الشعر ،ولم يجد مارجليوث بحسب زعمه شيئاً من التراث العربي قبل الإسلام وزعم أن العرب عرفوا بالوضاعين في العصر الأموي لتأثرهم بالأمم الأخرى.

الرد : إن الشعر الذي وصل إلينا من عصر ما قبل الإسلام لا يمثل بدايات الشعر العربي إنما يمثل أعلى درجات نضجه واكتماله، كذلك من صحيح القول إن مراحل من التطور سبقت هذا الشعر لكنه تعمد الخطأ حيث عزله عن حقه التاريخي وذلك أن تاريخ العرب يعود إلى آلاف السنين كما أن تطور اللغة العربية عن اللغات القديمة لم يصل إلينا لأنه نظم بلغات لم تعد موجودة كما هو في الشعر الصفوي .

٣-عدم تطابق القرآن مع الشعر .

يرى أن القرآن الكريم قد وصف العرب قبل الإسلام بأوصاف سيئة شتى كما وصف الشعر بصفات رديئة في حين يرى مارجليوث أن صورة العرب في أشعارهم تخالف أوصاف القرآن ،وهذا يعني عنده أحد الأمرين :

الأول : أن يكون القرآن صحيحاً في أوصافه للعرب وعند ذلك يكون الشعر غير صحيح في أوصافه .

الثاني : أن يكون الشعر صحيحاً وعند ذلك ينتقل الشك إلى القرآن الكريم وكذلك في هذا المجال يذهب إلى ما جاء من اتهام قريش للقرآن بأنه شعر وأن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم شاعر، ومن ثم رد القرآن على هذا الاتهام ،فيزعم أن العرب في هذا الاتهام قد أكدوا عدم معرفتهم بالشعر لأنها لو كانت تعرف الشعر على الشكل الذي وصل إلينا لما حصل مثل هذا الاتهام ولما ردوا القرآن ولا سيما أن القرآن قد ذم الشعر .

الرد : ليس صحيحاً ما ذهب إليه من عدم تطابق القرآن مع الشعر في وصف العرب فالقرآن ذم شيئاً من صفاتهم ليبين ما هو إيجابي وهنا يجب أن نذكر أن القرآن كتاب الله لا يأتيه الباطل وأن الأوصاف التي وردت فيه بشأن العرب المقصود منها تأشير ما هو سلبي، أما ما يخص اتهام قريش للرسول محمد صلى الله عليه وسلم بالشعر ورد القرآن هذا الاتهام الباطل لا يعني أن العرب لم تكن تعرف الشعر ،فهي تعرفه حق المعرفة كما تعرف السحر فإنه اتهام عاجز ويلاحظ أن مارجليوث تعمد قطع الآية عند قوله تعالى(يقولون مالا يفعلون) وزعم أن القرآن ذم الشعر والشعراء على الإطلاق ،أما الحقيقة التي أكدها العلماء في تفسير هذه الآية فإنها تخص الشعراء الكافرين بينما استثنى الشعراء المؤمنين ،والدليل على ذلك أن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم كان يحث حسان بن ثابت على الرد على قريش من ذلك قوله (أهجهم وروح القدس معك) .